

رد على السيد الياس الغريب

"الأسئلة" الموقف " أي حوار وأي فكر؟

بقلم الأستاذ دمون الشدياق

إن عملية الحوار الأدبي أو التاريخي أو العقائدي أو أي عملية حوار أخرى تتطلب من المتحاورين حداً أدنى من الصراحة والجرأة. وفي حالة السيد الياس الغريب كان من الممكن أن يتحلى بتلك الصراحة عينها التي كنا نتمناها عليه، ويقول لنا بأن أسئلته التي طرحها علينا هي من نوع ما يعرف بـ "الأسئلة الموقف" التي تسأل لمجرد إظهار موقف معين في حين لا ينتظر سائلها جواباً. وحتى إن حصل على الجواب تظل تلك الأسئلة موقف بحد ذاتها وسد لن يتخطاه، وتلك حالة لا تمت بصلة إلى أي نوع من أنواع الحوار والتحاور، ولو اعتمدنا الصراحة لقاننا بأنها حركة لمجرد تسجيل موقف معين.

بعد ردنا على السيد الغريب في المستقبل عدد ٣١٨ الصادر في ١١/٢/١٩٩٨ وإجابتنا على أسئلته عاد يسألنا الأسئلة نفسها متظاهراً بأننا لم نجب على ما سأل، وهذا موقف بعيد كل البعد عن الصراحة الأدبية إلا إذا كان السيد الغريب لم يفهم فحوى مقالنا وكان محتواه معقداً جداً لا يمكنه كنهه فحواه، فهذا أمرٌ آخر، ولهذا كانت الجرأة الأدبية إحدى دعائم الحوار السليم. فكان يمكن للسيد الغريب أن يتحلى بجرأة كنا سننتهي عليها ويقول "بالمشبرح" بأنه لم يفهم كلمة واحدة مما قلنا وعندئذ كان من الممكن أن نبحث معه بالنقاط التي استعصت عليه ونرسلها له بكلام بسيط لا يُشكل عليه. نطلب من السيد الكريم أن يعود إلى مقالنا السابق الذكر وسيجد الجواب على كل سؤال سألنا إياه، وما يستعصي عليه نحن على استعداد لشرحه له على صفحات المستقبل إن أراد، أو حتى أن نبعث بالشرح على عنوانه الخاص. وهنا وفي سياق الحديث لا بد من كلمة إكبار للسيد أسامة المهتار الذي حاورنا لشهور عدة وكان على مستوى الحوار بكل معنى الكلمة حتى وإن لم تكن نوافقه على معظم ما كان يقول، ولكن على الأقل كان يفهم علينا ونفهم عليه "أديباً" ورب قائل "لن تعرف قيمة قديمك حتى ترى جديك".

أما جديده السيد الياس الغريب المذهل فهو ادعائه في رده الأخير بعد ذكره لجبران والمطران يوسف الدبس ومخائيل نعيمة : "أن ليس للبنان وجود بكتاباتهم"، ويبدو أن السيد الغريب كعادته إما قرأ ولم يكنه، وإما قرأ مستعملاً جهاز رقابة عقائدي مبرمج لإلغاء كل وجود لأسم لبنان في أي نص يقرأه. ونحن هنا سنستعرض للسيد الغريب بعض ما جاء على لسان عظماء لبنان الذين جاء هو شخصياً على ذكرهم سابقاً ونتمنى عليه بأن يقرأ مقالنا هذا بدون استعمال جهازه المبرمج وبهذا يكون خدم نفسه والحقيقة في آن. فقد جاء على لسان المطران يوسف الدبس في

كتابه "الجامع المفصل في تاريخ الموارد الموصول) طبعة ١٩٨٢ عدد ١٣ صفحة ٤٣ في سياق كلامه عن البطريرك الأول القديس مار يوحنا مارون: "فأرغمه أصحاب البدع أن يفر أولاً إلى دير القديس مارون ومنه أنفذ إلى اللبنانيين كتابه الموسوم بإيضاح الإيمان ثم لم ينج هناك أيضاً من اضطهاد الملك يوستينيانوس الأخرم وأولى البدع ففر إلى لبنان: ". وجاء في المرجع نفسه عدد ٧ صفحة ٢٥ "إذ صرحوا بأن المردة سكان لبنان وخرجوا من لبنان فاستحوذوا على ما جاوره وضبطوا مشارف وأعالي لبنان إلى غير ذلك مما يدل صراحة على أن هؤلاء المردة إنما هم الموارد سكان لبنان وجواره وإلا فمن أين أتى هذا الشعب الغفير الباسل إلى لبنان ومتى هاجر إليه ولا نرى في كتب المؤرخين القدماء والحدثاء خطة تشير إلى مهاجرة شعب أوطانه وتوطينه في لبنان وجواره مكان أولئك المسيحيين المنتمين إلى القديس مارون ورهبانه أو تتبأ بأن أحد الملوك جلا شعباً غفيراً فأحله في لبنان وتغلب على سكانه الأصليين". ونلاحظ أنه في المثل الأخير فقط ذكر اسم لبنان سبع مرات في مقطع واحد. وهناك مئات الأمثلة المشابهة في كتب المطران يوسف الدبس تتحدث عن لبنان بنفس الكثافة. وهنا ننتقل إلى الأديب مخائيل نعيمة وسنرى إذا كان لبنان موجود في كتاباته أم لا ، فقد جاء في كتابه "النور والديجور" طبعة ١٩٦٦ في مقطوعة بأسم "لبنان" صفحة ١٠٠ : " لا ما أحببت لبنان لأنه مسقط رأسي ورؤوس أجدادي وأجداد أجدادي، بل لأنني، وقد طوّقت بعيداً في بلاد الله، ما عرفت بقعة توافرت في تكوينها وفي مركزها من الأرض مظاهر الحسن والروعة والجلال مثلها في لبنان". وفي المقطوعة عينها يقول: "إن لبنان ليس جبلاً شامخة، وأودية سحيقة، ونسمات منعشات وبنابيع دفاقة بل هو، إلى ذلك، مليون وبعض المليون من نساء ورجال وهو مزيج غريب من الأجناس والأديان. وقديماً قيل: "السر في السكان لا في المكان". وهنا نرى بأنه لا يتكلم فقط عن لبنان بل ويعتبره مهد أجداده وأجداد أجداده ويتغنى بتنوعه وغناه الحضاري. وأما إذا جئنا إلى جبران خليل جبران فإننا وإن تصفحنا كتاب "رسائل جبران" وقرأنا رسالة بعث بها السيد "أمين الغريب" بتاريخ ١٢ شباط ١٩٠٨ صفحة ١٠ فنرى أنه جاء فيها "لا تدع شيئاً في العالم يقف بين قلبك والفرح بالسفر إلى لبنان". وفي رسالة أخرى إلى الشخص نفسه بتاريخ ٢٨ آذار ١٩٠٨ صفحة ١٧ جاء "اذكرني عندما ترى الشمس جانحة نحو الغروب وقد وشحت بنقاب أحمر كأنها تذرف لفراق لبنان الدماء بدلاً من الدموع". وفي رسالة أيضاً إلى "أمين الغريب" بتاريخ ١٨ شباط ١٩١٣ صفحة ٢٢ جاء : " اذكر جدنا واجتهادنا في الاجتماعات العمومية والخصوصية قل هم قوم ينشغلون بزرع البذور في أميركا ليستغلوها في لبنان. وافعل وقل ما شئت على شرط أن تكون مسروراً لأن سرورك هو ما يريده كل لبناني حقيقي في الولايات المتحدة اذكر اسمي أمام محبي "المهاجر" في مصر وسوريا ولبنان لعل

اسمي يصير ذا نغمة لطيفة إذا ما اجتاز مسامعهم". وجاء في رسالة إلى فليكس فارس كتبت سنة ١٩٣٠: "فلا بد من الرجوع إلى لبنان، لا بد من التخلص من هذه المدينة السائرة على دواليب ومعانقة تلك المدنية المتسلسلة بنور الشمس، على أنني أرى من الحكمة ألا أترك هذه البلاد حتى أقطع الخيوط والسلاسل التي تربطني بها وما أكثر تلك السلاسل والخيوط. إنني أريد أن أذهب إلى لبنان وأبقى ذاهباً".

إن هذه الأمتلة التي أوردناها لهي نقطة في بحر، ولو أردنا إدراج جميع الأمتلة التي ذكر فيها لبنان في كتب ورسائل عظماء لبنان التي أورد أسماءهم السيد الغريب لما وسعت جريدة المستقبل بكليتها، وكلها أمثلة تدل كما دلت الأمتلة القليلة التي أوردناها على تعلق بلبنان والاعتزاز به كوطن مميز ومنها ما كتبت منذ أكثر من قرن كامل، وقبل أن يحدد الجنرال غورو "كما يدعي السيد الغريب" حدود لبنان.

وأما عن قضية ال ١٠٤٥٢ كيلو متر مربع وجزيرة ارواد وتميز الحضارة اللبنانية عن باقي حضارات المنطقة فإن السيد الغريب لو كان يتابع حوارنا مع السيد أسامة المهتار كما صرح في أكثر من مقال سابق فإنه كان سيعرف بأننا قلنا من قبل بأن هناك أجزاء كثيرة من ما يسمى سوريا اليوم كانت تتبع وتضاف إلى لبنان في حقائب كثيرة ولذلك كانت تذكر في حقبات متعددة كأنها جزء من لبنان. ولكن مساحة ال ١٠٤٥٢ كيلومتر مربع كانت دائما ثابتة في الكيان اللبناني الذي كان دائما يشملها. وإن أراد الإثباتات فليرجع إلى مقالاتنا السابقة المتعلقة بهذا الموضوع. ونتمنى على السيد الغريب أن يتبع النزاهة في كتاباته ولا يلصق بنا أشياء لم نقلها، كقوله بأننا نتهم المطران يوسف الدبس بالحالم ومشوه التاريخ، والبستاني بالواهم وان ما كتبه لا قيمة له. ونحن لم ندع بأن للبنان بحر يدعى باسمه كما قال ويدعي. وأما عن قوله بأننا نسخر من جيراننا فهذا ما لم نفعله ولن نفعله مهما احتد الخصام بيننا وبينهم فنحن لا نبخس أي حضارة حقها ولا نريد إلغاء أي حضارة قريبة كانت أم بعيدة كما يريد أن يفعل غيرنا فمن يريدون إلغاء الحضارة اللبنانية بل نحن من دعى وما زال يدعو إلى تعايش الحضارات جميعها بسلام وتفاهم وتناغم مهما اختلفت تلك الحضارات عن حضارتنا اللبنانية. لا بل نحن نذهب إلى أبعد من ذلك وندعو إلى تعايش جميع الحضارات داخل لبنان تحت جامعة واحدة هي لبنان الذي يكون قاسمها المشترك ويصهرها في بوتقة واحدة هي المجتمع اللبناني، وإنما إذا قلنا بتفردنا وتميزنا عن باقي حضارات المنطقة فهذا لا يعني بأننا على عداا معها أو نقول بإلغائها.

وفي مقطع آخر من مقالته أتحفنا السيد الغريب برأيه بالحضارة اللبنانية حين قال: "إن أحدا لم يفهم حضارتهم ويستوعبها لأنها تحتوي كل ذبح على الهوية" وهنا يمكننا تقسيم رأيه إلى قسمين أولا أنه لم يفهم حضارتنا اللبنانية وهذا ليس بعجيب فقد تكلمنا في بداية المقال عن مشكلة الفهم

عند السيد الغريب التي هي سبب كل العلل وهذا مفهوم ولكن أن يقول في القسم الثاني بأن الحضارة اللبنانية تحتوي على كل ذبح على الهوية غامزاً من قناة حروبنا الأهلية فليعلم بأنه هو وأمثاله أصحاب نظرية العرق الواحد المتفوق الفاشية الرافضة القبول بأي تميز لأي إنسان آخر هم الذين سببوا هذه الحروب وأججوها وذلك لعدم قبولهم بحق أي حضارة أخرى بالتواجد إذا لم تكن تتطابق مع ما يسمى بحضارتهم أو المسودة التي أعدوها ووضعوها لتغيير تاريخ المنطقة والتي هي ما زالت ولن تكون في يوم من الأيام إلا أضغاث أحلام.

واختلاط الحابل بالنابل عند السيد الغريب يتجلى بأصدق صورته عند تعاطيه مع سؤال "كم هو عدد رؤساء الجمهوريات الذين تعاقبوا على الحكم في لبنان ومن هو أول رئيس وفي أي سنة؟" علماً أننا اجبنا على هذا السؤال في مقالنا السابق. نلفت هنا إلى أن السيد الغريب يخلط في رده بين رؤساء الجمهورية والأمراء والولاة علماً لا علاقة للأمراء والولاة في سؤاله عن رؤساء الجمهورية اللبنانية، إلا إذا كان لا يستطيع التفريق والتمييز بين رؤساء الجمهورية والأمراء والولاة، ولنتبث ذلك نورد قوله حرفياً: "فالاستعمار الفرنسي والإنكليزي هما اللذين كانا يعينان الرؤساء والأمراء". هنا نذكر السيد الغريب بأنه لم يكن هناك من أمراء يحكمون في لبنان بعد الفترة العثمانية وبالتالي لا ندرى أي تاريخ أو مخطوطة أو نص تاريخي استند في قوله هذا. وإنما إذ نفهم بأن الغرض من السؤال أصلاً تبيان حداثة عهد الجمهورية اللبنانية فإننا نحيله على "الدكتور فيليب حتى" في كتابه "تاريخ لبنان" صفحة ٥٩٩ حيث قال: "بأن جمهورية لبنان الديمقراطية هي أول جمهورية من نوعها تأسست في العالم العربي"، علماً أن عدم وجود الجمهورية لا ينفي وجود لبنان الدولة والشعب والحضارة المميزة.

وأخيراً وبعد أن أشبع السيد الغريب لبنان نعوتاً أقلها أنه من صنع الاستعمار، معلناً بالتالي أنه لا يعترف بحدود لبنان الحالية لأنها من صنع الجنرال غورو والمستعمرين، يعود ليقول بأنه لا ينكر بأن لبنان قد أصبح دولة سياسية ومستقلة وذات سيادة معترف بها دولياً، وأنه (أي السيد الغريب) من لبنان ومن واجبه أن يجعل منه "وطناً مثالياً". نسأل هنا ما هو هذا الوطن الذي يريد أن يجعله مثالياً وهو لا يعترف به ككيان دائم وثابت بل يراه فقط من خلال وحدة كبرى ستبتلعها إن تحققت، وكيف يؤمن بأن "لبنان الحالي" هو من صنع الاستعمار وأنه لم يكن ليوجد لولا هذه القوى ثم يعود ويعترف به كدولة ويريد أن يجعله "وطناً مثالياً"؟. إن أضعف الإيمان أن يكون الإنسان صادقاً مع نفسه، فإما أن يؤمن بلبنان ووطناً، كان، وهو الآن، وسيبقى، تاريخه ثابت حضاري مميز ومحدد مما يشكل أساساً ثابتاً يمكن أن يبني عليه ووطنه المثالي، وإما أن يؤمن بأن لبنان لم يكن أبداً وهو بكلية صنعة المستعمر اجتزأ اجتزأ وعندها عليه (إن كان

صَادِقاً فِيمَا يَعْتَقِدُ) أَن يَظَلُّ فِي حَالَةِ نِضَالٍ حَتَّى تَصْحِيحِ ذَاكَ الْخَطَأِ الَّذِي يَرَاهُ بَعَيْنُهُ وَيَلْمِسُهُ بِإِصْبَعِهِ. أَمَّا أَن يَؤْمِنَ بِالنَّقِيضِينَ فَذَاكَ وَاللَّهُ قَمَّةُ الْعَجَبِ وَالتَّكْلِيفِ وَالمَصَانَعَةِ.

إِن مَنطَلَقَ إِيمَانُنَا بِلِبنَانٍ يَنبَعُ مِن دِيمومَةِ لِبْنَانِ كَكِيَانٍ وَكشَعْبِ عِبَرِ التَّارِيخِ وَبِثَوَابِتِ مَؤَكَّدَةٍ، وَيَنبَعُ مِن أَن لِبْنَانٍ أَثْبَتَ عِبَرِ العَصُورِ أَنَّهُ قِيمَةُ حَضَارِيَّةٍ كَانَتْ، تَسْتَمِرُّ وَتَسْتَبْقَى. وَنَخْتَمُ بِمَا قَالَهُ المِفْكَرُ فَاضِلُ سَعِيدِ عَقْلٍ: "وَأَنَّ وَطَنَ لِبْنَانٍ هُوَ نَفْسُهُ، فِي إِيمَانِهِ بِلِبْنَانِ المِسَاحَةِ الرُّوحِيَّةِ. إِن جُذُورَ الوَطَنِ اللِّبْنَانِيِّ هِيَ فِي ذَاتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا هِيَ فَقَطْ فِي ال ١٠٤٥٢ كِيلُو مِترِ مَرَبَعٍ. فَالإِيمَانُ بِشَخْصِيَّةِ الوَطَنِ إِيمَانٌ بِرُوحِهِ، وَرُوحُ الأُمَّةِ أَهَمُّ مِن أَرْضِهَا لِكونِهَا عِنصرِهَا الحَيِّ الفَاعِلِ العَاقِلِ وَكُلِّ لِبْنَانِيِّ مَؤْمِنٍ بِلِبْنَانٍ يَرى فِي وَجُودِهِ وَجُودَ للأُمَّةِ اللِّبْنَانِيَّةِ، وَيَرى الأُمَّةَ اللِّبْنَانِيَّةَ مَزْرُوعَةً وَمَوْجُودَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ، بِدُونِ حَاجَةٍ إِلَى "نُوسْتَالِجِيَا" وَإِلَى جِهَادٍ لِكَسْبِ وَطَنِهِ، فَهُوَ، قَدْ رَجَحَ أُمَّتَهُ نَهَائِيًّا وَلَا يَمْكَنُ أَن تَتَنَزَّعَ مِنْهُ لِأَنَّهَا مِنْهُ وَفِيهِ"

أَنْتَهِيَ الرَّدُ

تُورنْتُو فِي ١٩٩٨/٥/٦